الباب الحادي عشر

تصفية الوجود الصليبي (الفرنجة) من بلاد الشام

- في عهد السلطان الظاهر بيبرس
- في عهد السلطان محمد بن قلاوون
- تحرير عكّا في عهد الأشرف خليل
- تطهير آخر معاقل الصليبيين (الفرنجة)

الوضع العام بعد نهاية الحملات الصليبية الرئيسة

انتهت بالفعل الحملات الصليبية الكبرى بوفاة لويس التاسع وبقيام دولة المماليك في مصر والشام، لذلك لم تكن العلاقات بين المماليك والصليبيين الذين أقاموا كيانات سياسية في الشرق، بدءاً من أواخر القرن السادس الهجري/ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، محكومة دائماً بمساق الصراع الدامي كما يتخيله الكثيرون، بل تخللت حالة المواجهة بينهم فترات من الهدوء والاسترخاء العسكري، ضمنتها **اتفاقيات هُدن** سعى إليها غالباً أمراء الصليبيين، وبخاصة في أيام السلطان **الظاهر بيبرس** (٦٥٨ـ٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠ـ١٢٧٧ م)، والسلطان **المنصور قلاوون** (٦٧٨ـ٦٨٩ هـ/ ١٢٧٩ـ١٢٩٠ م). تنوعت محتويات هذه الهُدن لتشمل ضمان ممتلكات الطرفين، وسلامة الحكام الشخصية، وسلامة رعاياهم، وحرية حركة التجارة، وتنظيم جباية الرسوم والضرائب من المكلفين، من تجار ومسافرين ومقيمين.

عكست اتفاقيات الهُدن حالة التجزئة، التي كانت تعاني منها السنيوريات الصليبية القائمة على ساحل الشام، حيث كان يستحيل عليها أن تتواصل فيما بينها دون المرور بالمناطق الخاضعة للسيادة الإسلامية، أو اجتياز معابر ملامسة لهذه المناطق، أو واقعة على مقربة منها. فكانت هذه السنيوريات بمثابة جزر سياسية منعزلة في محيط إسلامي واسع: كان معبر إسكندرونة، مثلاً، يعزل سنيورية عكّا عن سنيورية صور. وكان القسم الجنوبي من سنيورية صيدا معزولاً تماماً عن سنيورية صور. كما أجبر أسياد بيروت على التنازل للتنوخيين أمراء العرب عن قسم من بلدة الدامور التي شكلت آنذاك الحد الفاصل بين سنيوريتي بيروت وصيدا. د. أحمد حطيط، الجامعة اللبنانية.

لم تصل إلينا نصوص اتفاقيات الهُدن المعقودة بين المماليك والصليبيين كاملة، باستثناء عدد قليل منها نقع عليه لدى مصنفي سيرتي بيبرس وقلاوون (السير الشعبية). هذا، مع الإشارة إلى أن ما عُقد منها أيام قلاوون جاء موجزاً وعامّاً، وكان بمثابة تجديد لما سبق أن تعاهد عليه بيبرس مع أمراء الفرنج، مكتفياً، في كثير من الأحيان، باستعادة مضمون الهدنات السابقة دون أية إضافات أخرى. وعليه، فإن من أكثر اتفاقيات الهدن أهمية، نظراً لاكتمالها، تلك المعقودة بين المنصور قلاوون وحكام عكّا عام ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م، لمدة عشر سنين كوامل وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، مؤرخة بالتقويم الهجري وما يقابله بالتقويم الإسكندري (المقدوني)، وهو ما كان يعتمده النصارى الشرقيون والصليبيون الأوروبيون، عندما كان هؤلاء يكتبون مراسلاتهم بالعربية.

فرض السلطان **بيبرس** هيبة الدولة على أعدائه بكسر شوكة المغول، بعد تسع مواجهات ضارية معهم، بين عامي ٦٧٠ـ٦٧٥ هـ و ١٢٧١ـ١٢٧٦ م، كان آخرها المعركة التي جرت في عقر دارهم، حيث ألحق بهم الهزيمة في سهل حمص في صحراء الطستين (آسيا الصغرى). **ونجح السلطان في زعزعة بنيان الكيانات الإفرنجية، بعد إحدى وعشرين حملة عسكرية عليهم.** أدت إلى سقوط مارة **أنطاكية** في يده واستيلائه قياماً على القلاع و الحصون الاستراتيجية المحيطة **بكونتية طرابلس، ومملكة عكا.**

كما قام بيبرس بخمس حملات على بلاد الأرمن في آسيا الصغرى وأخضعها لسيادته.

وإلى جانب منجزاته العسكرية الهامة، خط الظاهر بيبرس لدولته سياسة خارجية لفتة للانتباه تمثلت **في إحاطة حربه بسياج من المعاهدات والاتفاقيات الدولية لاكتساب الأعوان والحلفاء من جهة، والاستعداد بالأعداء من جهة أخرى.** ومن ذلك: سعيه الحثيث للتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية العدو التقليدي للاتين، وحرصه على الاحتفاظ بسياسة الود مع الجنوية ومع كل من شغل د نجو ملك صقلية وملك إشبيلية، وكانت له صلات حسنة مع عز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم، كما حالف بركة خان زعيم مغول القبجاق، وذلك لمواجهة عدوهما المشترك المتمثل بإيلخانات فارس من هولاكو وأوجدة.

بداية تصفية التجمعات الصليبية في بلاد الشام في عهد بيبرس

هاجم بيبرس إمارة إنطاكية سنة (٦٦٠هـ= ١٢٦٢م) وكاد يفتحها. ثم بدأ حربه الشعلة ضد الصليبيين منذ عام (٦٦٣هـ= ١٢٦٥م) ودخل في عمليات حربية ضد إمارات الساحل الصليبي، وتوج أعماله العظيمة بفتح مدينة إنطاكية سنة (٦٦٦هـ= ١٢٦٨م)، بعد أن ظلت رهينة الأسر الصليبي على مدى أكثر من مائة وخمسين عاماً، وكان ذلك أكبر انتصار حققه المسلمون على الصليبيين منذ أيام حطين واسترداد بيت المقدس.

فقد سارع هوغ الثالث ملك قبرص إلى عقد هدنة مع بيبرس نصت على ضمان السلطان لسلامة أراضي الجزيرة مع احتفاظ عاهلها بحق نقض الهدنة في حال وصول صليبية جديدة إلى الشام.

وفي عام ٦٦٩/ ١٢٧٠، أرسل الظاهر بيبرس حملة بحرية لغزو قبرص. وكان السبب في ذلك إلقاء القبض على رسل السلطان المملوكي في الجزيرة، وهم في طريقهم عبرها، إلى بلاد الروم في آسيا الصغرى. وتذكر المصادر أن الحملة باءت بالفشل، إذ تحطمت معظم سفنها قبالة شواطئ ليماسول على الساحل الجنوبي للجزيرة، بسبب العواصف المدمرة التي داهمتها. ووقع عدد كبير من بحارتها في الأسر.

وعلى الرغم من حرص بيبرس على إعادة بناء أسطوله، وقد تم إنجازه بالفعل في أقل من سنتين؛ فإن السلطان بيبرس لم يعاود غزو قبرص لانشغاله بمواجهة الخطر المغولي، ولتيقنه من تفوق الأسطول القبرصي، وهو ما صرح به في رسالة بعث بها إلى الملك هوغ الثالث، على أثر انتزاعه حصن القرين القريب من الفرنج عام ٦٦٩/ ١٢٧١م.

الوجود الصليبي في عهد السلطان المنصور (محمد بن قلاوون)

كان من الطبيعي أن يركز المماليك جهودهم للاستيلاء على عكّا، منذ بدأ الظاهر بيبرس نشاطه العسكري في بلاد الشام. فسقوطها سيؤدي بالضرورة إلى تهاوي المناطق الصليبية الواقعة في دائرة نفوذها، **ولا سيما الشريط الساحلي بين بيروت وصور**. وقد أسفرت العمليات العسكرية عن عقد السلطان اتفاقية **هدنة مع أسياد عكّا** عام ٦٦٦ هـ/ ١٢٦٨ م، مدتها عشر سنوات.

أما المنصور **قلاوون**، فقد سعى حثيثاً لمنع التقارب بين **الصليبيين والتتار**، وهذا ما يعلل تعهده بضمان سلامة أملاك أسياد عكّا من أي اعتداء كي يتفرغ لجبهة غزوات التتار لبلاد الشام. فأعاد السلطان للصليبيين بعض الأراضي التي سبق أن استولى عليها، ومنه ضمانات للحجاج النصارى القاصدين من بلاد عكّا زيارة **كنيسة الناصرة**. وتشير بعض نصوص هدنة عكّا إلى حالة القلق التي كانت تراود السلطان قلاوون من شيوع أخبار مشاريع التحالف بين الصليبيين والتتار، وهي مشاريع عمل اللاتين على تحقيقها جدّياً، لضمان سلامة مستعمراتهم في فلسطين. لذا حرص السلطان على تضمين الهدنة نصاً يلزم أسياد عكّا بإنذاره بعزمهم على فسخ الهدنة قبل شهرين على الأقل من قدوم صليبية جديدة إلى الشرق. أما إذا علم أحد الطرفين بحركة التتار، أو أية شعوب أخرى آتية من سهوب آسيا باتجاه الشام، فيتوجب عليه أن يخطر الطرف الآخر بذلك كي يتدبر أمره ويستعد لمواجهة الخطر الداهم. ولأن خطر **التتار** يستهدف **المسلمين** أساساً، فقد تعهد أسياد عكّا بتوفير الحماية لهؤلاء إذا ما أرغموا على الانهزام أمام التتار إلى بلاد مملكته.

لقد كانت الحالة التي سادت بلاد الشام على أهبة الاستعداد من تكرار هجمات التتار. وترقب المماليك الدائم لحركة المدد الأوروبية إلى الشرق. فضلاً عن التنافس الحاد بين أمراء اللاتين أنفسهم، قد دفع المماليك والصليبيين إلى تجديد الهُدن، فإن ثمة عاملاً كان له أهمية أبعد مدى في الزمان أفسد كل جهد ممكن ذلك بأن المماليك المطعون في مشروعيتهم من أنصار الأيوبية ومن بقايا الدولة العبيدية في مصر والشام، وجدوا في إحياء خلافة بني العباس في القاهرة، بعد سقوطها في بغداد على يد التتار عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م، فرصة لإضفاء صفة الشرعية الدينية على حكمهم، **ورأوا في متابعة حركة الجهاد ضد الصليبيين والتتار ما يعزز مكانتهم لدى المسلمين كافة. ويجعل سلاطين المماليك في مرتبة أعلى من حكام البلاد الإسلامية الآخرين باعتبارهم حماة الإسلام والخلافة الإسلامية**. لذا لم يكن بوسع المماليك أن يرضوا باستمرار وجود دولة أجنبية دخيلة على بلاد المسلمين. بالرغم من "علاقات حسن الجوار" التي ضمنتها اتفاقيات الهدن، ولو إلى حين.

د. أحمد دهيط، تاريخ لبنان الوسيط، دراسة في مرحلة الصراع المملوكي الصليبي

السلطان المنصور (محمد بن قلاوون)

هو ثالث سلطان من المماليك حكم من ١٦ محرم ٦٩٢هـ/ ٨ ديسمبر ١٢٩٣م، ويعبر العصر التهي لدولة المماليك. أصبح سلطاناً على مصر بعد مقتل أخيه؛ ليجلس على العرش وهو لا يزال في السابعة من عمره في ١٨ ديسمبر ١٢٩٣. واختير الأمير "كتبغا" نائباً له وكان القائد الحاسم الفعلي للبلاد. حقق محمد بن قلاوون إنتصارات عسكرية على جيشي المغول والصليبيين كما شهدت البلاد في عهده بن قلاوون نهضة حضارية وعمرانية هائلة "القصر الأبلق" و"مسجد لتلعة" في يونيو ١٣٤١، مرض السلطان الناصر مرضاً شديداً حتى توفي بعد أحد عشر يوماً عن عمر بلغ سبعة وخمسين عاماً.

تعد مدرسة و جامع الناصر محمد ابن قلاوون من أهم آثار العصر المملوكي و أبدعها.

أعيد ابناء الحالي لباب المغاربة و هو أحد بوابات القدس. سمي بباب المغاربة نظراً لأن القادمين من المغرب كانوا يعبرون منه لزيارة المسجد الأقصى في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧١٣ هجرية/ ١٣١٣ ميلادية.

توفي السلطان قلاوون بقلعة الجبل بالقاهرة في السابع عشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ، وفيها غُسّل وكفن. ثم حُمل إلى تربته الملحقة بمدرسة العظيمة بين القصرين (شارع المعز) فدُفن فيها، ولا تزال المدرسة شامخة شاهدة على عظمة هذا السلطان وازدهار عهده.

تصفية التجمعات الصليبية في بلاد الشام في عهد قلاوون

واصل **المماليك** جهادهم ضد **الصليبيين** في عهد السلطان "**المنصور قلاوون**"، الذي تولى السلطنة في سنة ٦٧٨هـ= ١٢٧٩م)، فاستولى على "**حصن المرقب**" سنة (٦٨٤هـ= ١٢٨٥م)، واسترد "**اللاذقية**" سنة ٦٨٦هـ= ١٢٨٧م)، وفتح "**طرابلس**" بعد حصار دام شهرين في (٦٨٨هـ= ١٢٨٩م) ثم تلتها "**بيروت**" و"**جبلة**"، **ولم يبق للصليبيين في الشام سوى "عكا" و"صيدا" و"عثليت" وبعض المدن الصغيرة**. وتجهز لفتح "عكا"، غير أن المنية كانت أسبق من إنجاز أمله؛ فتوفي في (ذي القعدة ٦٨٩هـ= نوفمبر ١٢٩٠م).

لقد اندرجت اتفاقيات الهُدن المعقودة مع الصليبيين في سياق استراتيجية عمادها إتمة الأحلاف واستفراد الأعداء. أرسى قواعدها السلطان المظفر قطز (٧ـ ٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩ ـ ١٢٦٠ م)، حين نجح عشية معركة عين جالوت (٦٥٨هـ ١٢٦٠ م)، في عقد اتفاقية مع بارونات **عكا** قضت بالتزامهم الحياد في الصراع المملوكي ـ التتاري، والسماح لجيشه باجتياز أراضي عكا، وهو في طريقه إلى ساحة المعركة. وتابع سلاطين المماليك سياسة سلفهم قطز، ونقضوا عهودهم مع الصليبيين حينما يشتمون منهم رائحة الغدر والخيانة، أثناء مجيء تعزيزات صليبية ضد المسلمين !؟ .

مؤلف ومصمم الأطلس أمام مدخل قلعة المرقب في شمال غربي سوريا

قلعة المرقب من الداخل

قلعة (حصن) المرقب: حصن يقع على بعد ٥ كم جنوب شرقي بانياس (محافظة طرطوس). بناها العرب عام ٦٢ ١م. احتلها الصليبيون عام ١١١٧م. وأصبحت من أهم مواقعهم الحصينة في المنطقة. استعادها **السلطان قلاوون** في العام ١٢٨٥م، بعد قتال عنيف وحصار استمر ٣٨ يوماً. وتم جلاء حامية القلعة إلى إمارة عكّا. **كانت هزيمة الصليبيين في المرقب إيذاناً بانتهاء وجودهم في الشرق.** أمر قلاوون بتحصين القلعة وترك فيها فرقة من المماليك البحرية. يحيط بالقلعة سوران، داخلي وخارجي. يحتوي الأخير على ١٤ برجاً دفاعياً، لعل أهمها البرج الجنوبي، **وهو برج ضخم تزينه أحجار بيضاء نقش عليه تاريخ فتح القلعة على يد قلاوون.** من أجزاء القلعة الهامة أيضاً قاعة الفرسان والقاعة الكبيرة وكنيسة تعود لقرن الثاني عشر.

المكان الذي حوله السلطان قلاوون إلى مسجد بعد تحريره من الصليبيين

شاطئ اللاذقية على البحر المتوسط

ميدان اللاذقية الرئيس

وقعت اللاذقية تحت الاحتلال الصليبي في عام ١٠٩٧م و ألحقوها بولاية أنطاكية. استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يحررها في عام ١١٨٨م بيد أن الصليبيين أخضعوها مرة ثانية تحت حكم ولاية طرابلس في عام ١٢٦٠م، وتخلصت نهائياً من الاحتلال الصليبي في عهد السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨٧م.

قلعة صلاح الدين الأيوبي في اللاذقية

بعد هزيمة الصليبيين في موقعة حطين عام ١١٨٧ م على يد صلاح الدين الأيوبي هرب الفرسان الصليبيون إلى البلاد الأوروبية. وبسقوط عكا ١٢٩١ م وطرد الصليبيين نهائيا من الشام اتجهت هيئات الفرسان إلى نقل نشاطها إلى ميادين أخرى:

- اتجه الفرسان التيوتون نحو شمال أوروبا حيث ركزوا نشاطهم الديني والسياسي قرب شواطئ البحر البلطيكي.
- نزح (الداوية) أو فرسان المعبد إلى بلدان جنوبي أوروبا وخاصة فرنسا حيث قضى عليهم فيليب الرابع فيما بعد (١٣٠٧: ١٣١٤ م).
- فرسان الاسبتارية (المستشفى) الذين ظل وجودهم حتى اليوم، فقد اتجهوا في البداية إلى مدينة صور ثم إلى المرج (في ليبيا حاليا) ومنها إلى عكا ثم ليماسول في قبرص ١٢٩١م.

قلعة طرطوس من الداخل

مدخل قلعة طرطوس الأثرية

حوالي العام ١١٠٠م، أخذ الصليبيون يشددون حملاتهم على سواحل المنطقة قصد التوغّل إلى بيت المقدس في فلسطين، وكان ريمون دي صنجيل يحلم بإنشاء إمارة له ولأولاده في طرابلس وقد حاول أكثر من مرة بمساعدة الأسطول الجنوية الإيطالية خلال عدة سنوات فلم يفلح وقد تابع خلفه محاصرة طرابلس وتمكنوا من الاستيلاء عليها عام ١١٠٩م، وظل يحكمون فيها ومن بعده أولاد وأحفاد ريموند دي صنجيل حتى العام ٢٨٩ م.

أحد الجوامع الحديثة في طرابلس

كان التنافس بين الأمراء الصليبيين على الحكم على أشدّه، مما أضعف قوتهم وشتت شملهم، وهنا وجد المماليك في مصر الفرصة سانحة أيام **حكم السلطان قلاوون** الذي جهز حملة عسكرية كبيرة من ٤٠ ألف فارس، و١٠٠ ألف جندي من المشاة، حيث حاصر طرابلس في أول آذار من عام ١٢٨٩م، وظل يهاجمها حتى ٢٦ نيسان أي لمدة ٣٤ يوماً، واستولى عليها وقتل كل من غدر فيها من الصليبيين، و لذين تمكنوا من النجاة الغادرين **ولجأوا إلى جزيرة صغيرة قبالة ساحل طرابلس** حيث كان يوجد فيها كنيسة، لحقت بهم **جيوش السلطان قلاوون** وقتلت الغادرين منهم. وبعد استيلاء المماليك على طرابلس، أمر السلطان **قلاوون** بهدمها ولم يبق فيها حجر على حجر. ثم أمر ببناء مدينة "طرابلس" من جديد على ضفتي النهر. بقيت طرابلس تحت حكم المماليك قرنين وربع قرن، حين دخلت قوات السلطان سليم العثماني البلاد العربية وانهت حكم المماليك فيها واستمر حكم العثمانيين أربعة قرون إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى ودخل الحلفاء منطقة الشرق الأوسط: وكان لبنان من نصيب الفرنسيين، ثم استقلال لبنان.

أحد المداخل الرئيسة إلى بيروت العاصمة اللبنانية

باستيلاء المسلمين على طرابلس. فقد الصليبيون بعدها، بيروت وجبلة وما حولها من الحصون بدون مقاومة تُذكر، ولم يبق في حوزتهم بالسواحل الشامية سوى مدينة جبيل التي أقر السلطان قلاوون، صاحبها عليها مقابل مبلغ من المال، بالإضافة إلى مدن عكّا وصور وصيدا، وحصن عتليت.

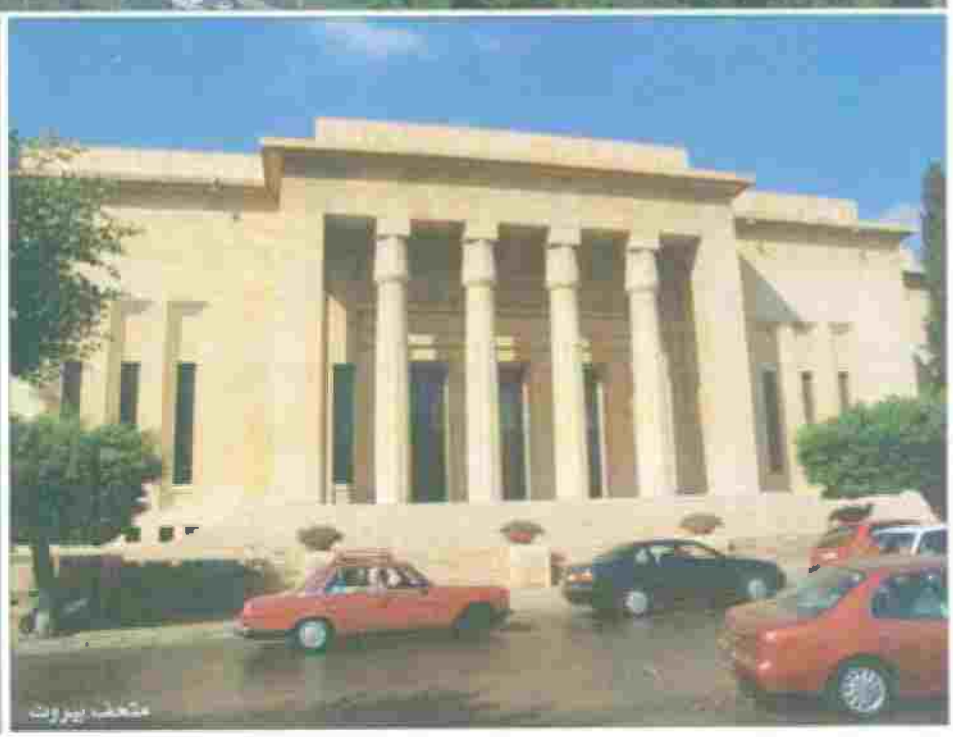

متحف بيروت

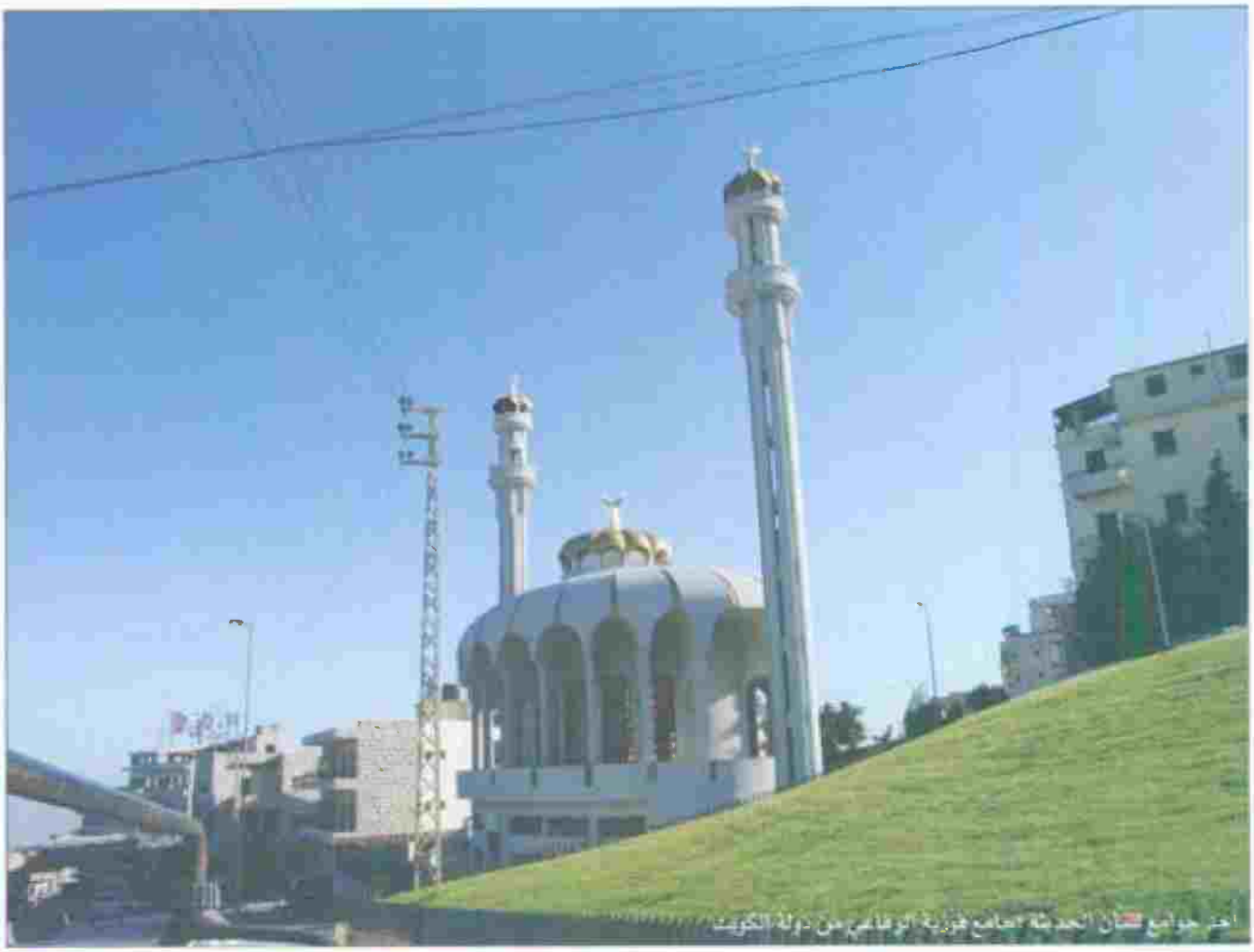

أحد جوامع لبنان الحديثة (جامع جزيرة الوطاني) من دولة الكويت

الطبيعة الخلابة في محيط بيروت

القضاء نهائياً على الوجود الصليبي الفرنجي في عهد السلطان (الأشرف خليل)

بعد أن فتح **المنصور قلاوون** (٦٧٩- ٦٨٩ هـ) طرابلس وعزم على حصار **عكّا** ولكن المنية عاجلته، خلفه ابنه **الأشرف خليل** (٦٨٩- ٦٩٣ هـ) والذي توجه بقواته نحو عكّا، واجتمعت إليه جيوش مصر والشام سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) فقام بمحاصرتها مدة أربعة وأربعين يوماً، ورماها بالمنجنيق، حتى فتحها في جمادى الأول من عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١م)، رغم المقاومة العنيدة التي أبدتها حاميتها، وإمدادات قبرص لها - حيث أن الصليبيين كانوا يعلمون أنها آخر أمل لهم في البقاء في الشام- وقد فر بعض سكانها إلى عرض البحر المتوسط وتكدسوا في السفن التي غرق بعضها لكثرة من كانوا على ظهرها .

وبعد ذلك قام **الأشرف خليل** بالاستيلاء بسهولة على **بقية ما تبقى بأيدي الصليبين** مثل: **صور وحيفا** اللتين قاومتا مقاومة كبيرة، ثم اضطرتا للتسليم فنجتا بذلك من التخريب ، ثم استولى الأشرف خليل على **عتليت وصيدا وانطرسوس** ، وبهذا تم القضاء نهائياً على الوجود الصليبي في الشام، وإن كان الصليبيون في **جزيرة إرواد** المقابلة للساحل الشرقي قد ظلوا يغيرون على السواحل بين الفينة والأخرى ويقطعون الطرق، مما أزعج نائب السلطنة المملوكية على الشام، وجعله يطلب معونة السلطان الناصر محمد ابن قلاوون، فجهز أسطولاً ووجهه نحو هذه الجزيرة بعد أن ضم إليه جيش **طرابلس** ففتحها وملكها وقتل من أهلها خمسمائة وذلك عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م).

وهكذا بالقضاء على **الصليبين** في عام ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) وبزوال **الخطر المغولي** عن **الشام ومصر**، أصبح **لدولة المماليك** شأن عظيم في السياسة الدولية خصوصاً في عهد سلطانها الناصر محمد ابن قلاوون في سلطنته الثالثة.

أدرك **الصليبيون** في **أوروبا** فشل محاولاتهم المتلاحقة للعدوان على **بلاد الإسلام** في الشام ومصر، ورأوا زوال آخر إماراتهم بعد قرنين من تأسيسها، رغم ما بذل في سبيل إقامتها من جهود مادية ومعنوية، ومن سفك في سبيلها من دماء، كما لمسوا فتور الحماس الصليبي، بعد فشل حملتي لويس التاسع السابعة والثامنة على مصر وتونس، لذلك اضطروا إلى تقبيل اليد التي حاولوا قطعها فلجأوا إلى الدبلوماسية والمراسلات والسفراء والهدايا، علهم يحققون عن طريقها ما فشلوا في تحقيقه بالتعصب والسيف.

انهال سفراء الدول الأوروبية على بلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون في القاهرة، محملين بالهدايا والرسائل التي تلح في طلب الصداقة والموادعة، وتوثيق عرى الصداقة، في حين كان غرضها الأساسي هو استدرار عطف الناصر على النصارى في دولته، سواء من كان منهم من الأقباط في مصر أو من أهل الشام، فأرسل البابا يوحنا الثاني والعشرين في عام ٧٢٧ هـ (١٣٢٦م) رسالة إلى الناصر طالباً منه أن يعامل نصارى الشرق معاملة عادلة، مقابل معاملة مماثلة للمسلمين، فرد عليه الناصر مجيباً طلبه .

مراسلات الأوروبيين للأشرف خليل

في نفس السنة التي حرر المسلمون عكّا أرسل شارل الرابع ملك فرنسا رسالة بالعصف على نصارى المشرق فرد عليه الناصر أيضاً مجيباً طلبه ، كما أرسل إليه إمبراطور بيزنطة سفراء محملين بالهدايا راجياً إياه معاملة النصارى الملكانيين لديه بالرعاية والعدل ، فقبل الناصر طلبه، وعقد معه حلفاً لصد الأتراك العثمانيين .

وبلغت العلاقات بين الناصر ويعقوب ملك أرغونة شأواً كبيراً بسبب المراسلات بينهما ما بين سنتي٧٠٢ - ٧٢٨ هـ (١٣٠٢-١٣٢٧ م)، التي كان هدفها إيجاد علاقة صداقة بينهما، والحصول على ميزات تجارية لأرغونة في مصر، وتسهيل الحج للأراضي المقدسة، وإطلاق سراح النصارى المسجونين في مصر ، وضمان حسن معاملة الأقباط والنصارى عامة في الشرق .

وقد رأى الناصر محمد- الذي كان ملكاً مستنيراً محنكاً يميل إلى المسالمة - في ذلك فرصة لتوثيق العلاقات بين دولته والآخرين في الشرق والغرب ، يحقق بها مصالح مشتركة وحماية المسلمين في أسبانيا التي كانت خاضعة لحاكم أرغونة، بالإضافة إلى المصالح التجارية والعسكرية في الوقوف أمام الأخطار المحدقة بدولته في قادم الأيام.

تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام في عهد الأشرف خليل

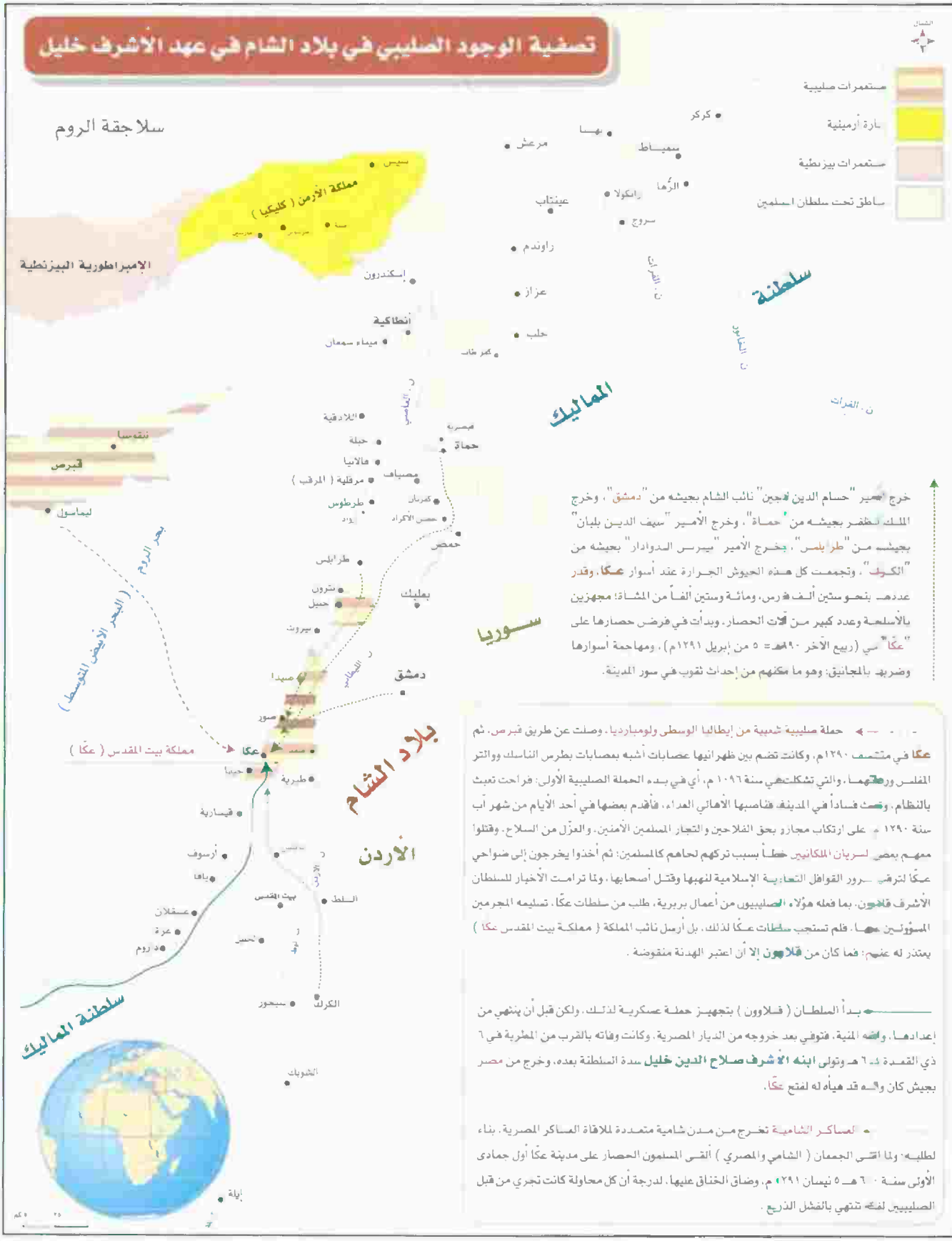

خرج الأمير "حسام الدين لاجين" نائب الشام بجيشه من "دمشق"، وخرج الملك المظفر بجيشه من "حماة"، وخرج الأمير "سيف الدين بلبان" بجيشه من "طرابلس"، وخرج الأمير "بيبرس الدوادار" بجيشه من "الكرك"، وتجمعت كل هذه الجيوش الجرارة عند أسوار عكا، وقدر عددهم بنحو ستين ألف فارس، ومائة وستين ألفاً من المشاة؛ مجهزين بالأسلحة وعدد كبير من آلات الحصار، وبدأت في فرض حصارها على "عكا" في (ربيع الآخر ٦٩٠هـ = ٥ من إبريل ١٢٩١م)، ومهاجمة أسوارها وضربها بالمجانيق؛ وهو ما مكنهم من إحداث ثقوب في سور المدينة.

حملة صليبية شعبية من إيطاليا الوسطى ولومبارديا، وصلت عن طريق قبرص، ثم عكا في منتصف ١٢٩٠م، وكانت تضم بين ظهرانيها عصابات أشبه بمصابات بطرس الناسك ووالتر المفلس ورفاقهما، والتي تشكلت في سنة ١٠٩٦ م، أي في بدء الحملة الصليبية الأولى؛ فراحت تعبث بالنظام، وعاثت فساداً في المدينة، فناصبها الأهالي العداء، فأقدم بعضها في أحد الأيام من شهر آب سنة ١٢٩٠ م على ارتكاب مجازر بحق الفلاحين والتجار المسلمين الآمنين، والعزل من السلاح، وقتلوا معهم بعض السريان المكانيين خطأ بسبب تركهم لحاهم كالمسلمين؛ ثم أخذوا يخرجون إلى ضواحي عكا لترقب مرور القوافل التجارية الإسلامية لنهبها وقتل أصحابها، ولما تراءت الأخبار للسلطان الأشرف قلاوون، بما فعله هؤلاء الصليبيون من أعمال بربرية، طلب من سلطات عكا، تسليمه المجرمين المسؤولين عنها، فلم تستجب سلطات عكا لذلك، بل أرسل نائب المملكة (مملكة بيت المقدس عكا) يعتذر له عنهم؛ فما كان من قلاوون إلا أن اعتبر الهدنة منقوضة.

بدأ السلطان (قلاوون) بتجهيز حملة عسكرية لذلك، ولكن قبل أن ينتهي من إعدادها، وافته المنية، فتوفي بعد خروجه من الديار المصرية، وكانت وفاته بالقرب من المطرية في ٦ ذي القعدة ٦٨٩ هـ وتولى ابنه الأشرف صلاح الدين خليل سدة السلطنة بعده، وخرج من مصر بجيش كان واثقاً قد هيأه له لفتح عكا.

العساكر الشامية تخرج من مدن شامية متعددة لملاقاة العساكر المصرية، بناء لطلبه؛ ولما التقى الجمعان (الشامي والمصري) ألقى المسلمون الحصار على مدينة عكا أول جمادى الأولى سنة ٦٩٠ هـ ٥ نيسان ١٢٩١ م، وضاق الخناق عليها، لدرجة أن كل محاولة كانت تجري من قبل الصليبيين لفك تنتهي بالفشل الذريع.

تحرير عكا من أيدي الصليبيين

١ ملك قبرص (هنري الثاني) يصل بـ ٤٠ سفينة حربية، تنقل ٢٠٠ من الفرسان، و ٥٠٠ من المشاة لمساعدة صليبي عكّا في ٤ أيار سنة ١٢٩١ م..

٢ معسكر الجيش الإسلامي بقيادة الأشرف خليل ، يتعرض معسكره لضرب متعمد من أحد منجنيقات الصليبيين؛ مما أغضب السلطان، وأوقف المفاوضات، وعادت المناوشات تشتد بين المحاصرين والمحاصَرين الذين أبدوا مقاومة قوية بعد مجيء قوات ملك قبرص .

٣ **الداوية والاسبتارية . وجان دي غرايي قائد الفرقة الفرنسية. واوت دي غرانسون قائد الفرقة الإنجليزية. وهو فارس سويسري اضافة إلى ملك قبرص(هنري الثاني).**

٤ **دمشق وطرابلس وحماة والكرك [منطلق الجيش الشامي لحصار عكا] .**

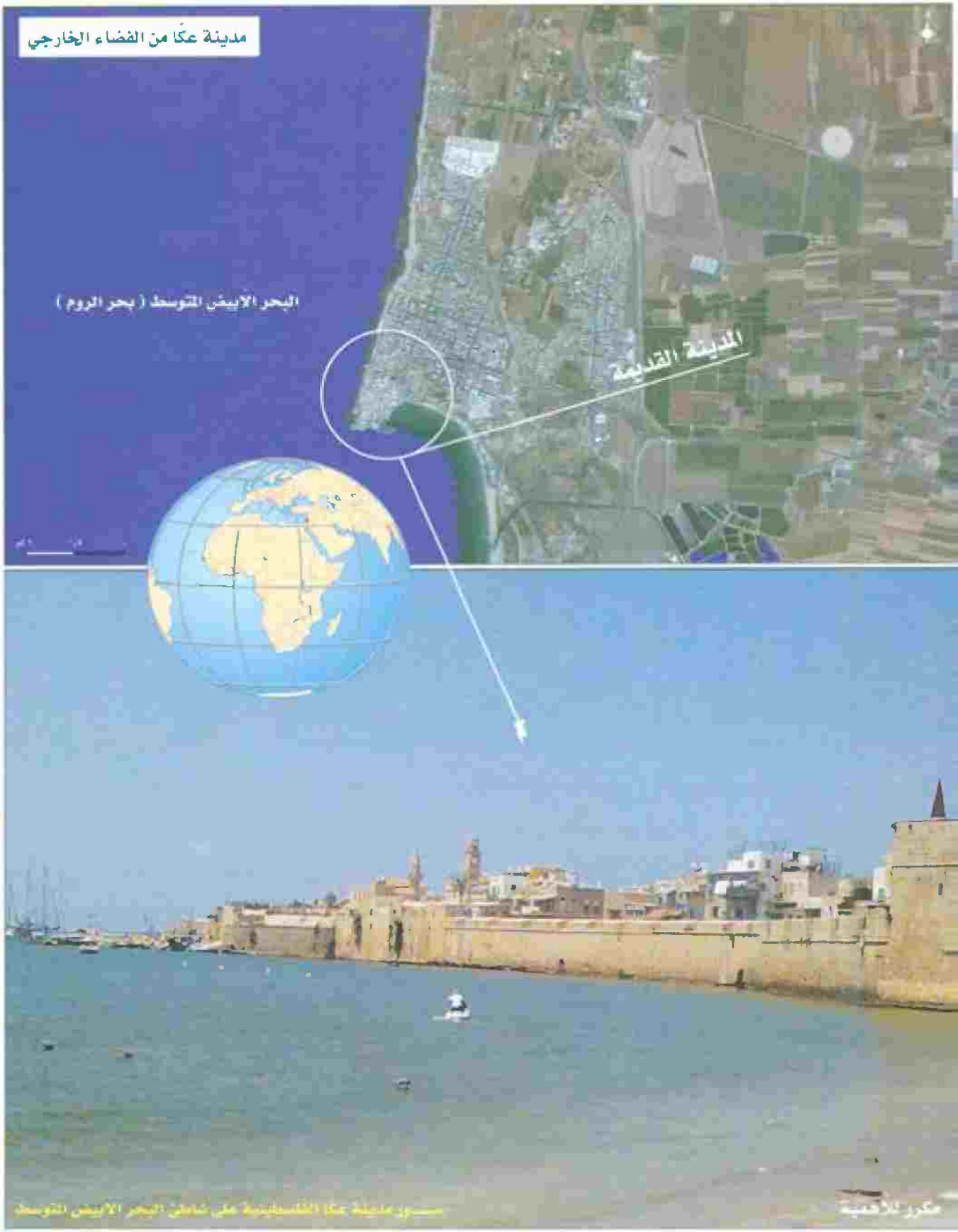

منظر عام لمدينة عكا الفلسطينية على شاطئ البحر الابيض المتوسط

مكرر للأهمية

ميناء عكا من الفضاء الخارجي

اشتد **الحصار الإسلامي** على **الصليبيين** في **عكا** والذي دام ثلاثة وأربعين يوماً، وعجز **الصليبيون** عن الاستمرار في المقاومة، ودب اليأس في قلوبهم: فخارت قواهم. **وشق المسلمون طريقهم إلى القلعة**، وأجبروا حاميتها على التراجع؛ فدخلوا المدينة التي استسلمت، وشاعت الفوضى في المدينة، بعد أن زلزلت صيحات جنود المماليك (الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر) جنبات المدينة، وهز الرعب والفزع قلوب الجنود والسكان: فاندفعوا إلى الميناء في غير نظام يطلبون النجاة بقواربهم إلى السفن الراسية قبالة الشاطئ؛ ففرق بعضهم بسبب التدافع وثقل حمولة القوارب وانهارت المدينة ووقع عدد كبير من سكانها أسرى في قبضة المماليك، وسقطت في يد الأشرف خليل في (١٧ من جمادى الأولى ٦٩٠هـ = ١٨ مايو ١٢٩١م)، ثم واصل سعيه لإسقاط بقية المعاقل الصليبية في الشام كما سيتضح لنا في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

مرتسم تخيلي لتحرير عكا من أيدي الصليبيين

الاجهاز على البقية الباقية من الصليبيين (الفرنجة) في بلاد الشام

واصل السلطان الأشرف خليل سعيه لإسقاط بقية المعاقل الصليبية في الشام: فاسترد مدينة "صور" دون مقاومة و"عبدا" ودمرت قواته قلعتها وفتح "حيفا" دون مقاومة و"طرسوس" في (٥ من شعبان ٦٩٠هـ = ٣ من غشت ١٢٩١ م)، و"عثليث" حتى (١٦ من شعبان ٦٩٠هـ).

طلبت الجيوش المملوكية تجوب الساحل الشامي بعد جلاء الصليبيين من قبرص إلى أقصاه، بضعة أشهر تعد كل ما تعتبر صالحا للنزول الصليبيين إلى البر مرة أخرى. وبهذا وضع "الأشرف خليل" بشجاعته وقدامه حد الحروب الصليبية.

قال أبو الفداء : وخرج الفرنج (الصليبيون) في أثناء مدة الحصار بالليل، وكبسوا العسكر، وهزموا اليزكية، واتصلوا إلى الخيام، وتعلقوا بالأطناب، ووقع منهم فارس في جورة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك. وتكاثرت عليهم العساكر فولى الفرنج منهزمين إلى البلد. وقتل عسكر حماة عدة منهم، فلما أصبح الصباح، علق الملك المظفر صاحب حماة، عدة من رؤوس الفرنج في رقاب خيلهم التي كسبها العسكر منهم، وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف، واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم، في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة بالسيف، ولما هاجمها المسلمون، هرب جماعة من أهلها في المراكب، وكان في داخل البلد عدة أبرجة عاصية، بمنزلة قلاع، دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها. وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوت الحصر من كثرته، ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة، ولم يتأخر منهم أحد، فأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض، ودكت دكاً، ومن عجائب الاتفاق. **أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين، ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، سنة سبع وثمانين وخمسمائة، واستولوا على من بها من المسلمين، ثم قتلوهم، فقدر الله عز وجل في سابق علمه، أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين، فكان فتوحها مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه، وكذلك لقب السلطانين.**

ذكر فتوح عدة حصون ومدن:

لما فتحت عكا، ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام، فأخلوا صيدا وبيروت، وتسلمها الشجاعي في أواخر رجب، وكذلك هرب أهل مدينة صور، فأرسل السلطان وتسلمها، ثم تسلم عثليث في مستهل شعبان، ثم تسلم أنطرطوس في خامس شعبان. جميع ذلك في هذه السنة، أعني سنة تسعين وستمائة. واتفق لهذا السلطان من السعادة، ما لم يتفق لغيره، من فتح هذه البلاد العظيمة، الحصينة، بغير قتال ولا تعب، وأمر بها فخربت عن آخرها، وتكاملت بهذه الفتوحات، جميع البلاد الساحلية الإسلامية، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام وتطهر الشام والسواحل من الفرنج (الصليبيين)، بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية، وعلى ملك دمشق، وغيرها من الشام، فلله الحمد والمنّة على ذلك. ولما تكاملت هذه الفتوحات العظيمة، رحل السلطان الملك الأشرف، ودخل دمشق وأقام مدة، ثم عاد إلى الديار المصرية ودخلها في هذه السنة.

البشر - (ج ١ / ص ٤٧٨).

تحرير آخر معاقل الصليبيين (الفرنجة)

١ بسقوط مدينة عكّا ، تخاذلت قوى الصليبيين في المدن البقية لهم في بلاد الشام، وكما ذكرنا في الخريطة السابقة، سقطت صور وصيدا وحيفا، ولم يعد هناك للداوية إلا **طرطوس** وجزيرتها أرواد و**عطليث**، وهما آخر معقلين من معاقلهم سقطا بيد المسلمين في الثالث والرابع عشر من آب سنة ١٢٩١ م، مستهل شهر شعبان سنة ٦٩٠ هـ .

٢ قصيدة القاضي محيي الدين عبد الظاهر :

يابني الأصفر قد حل بكم ... نقمة الله التي لاتنفصل

نزل الأشرف في ساحتكم ... فابشروا منه بصفع متصل

٣ خروج الفرنج (الصليبيين) النهائي من بلاد الشام ولجوؤهم إلى جزيرة قبرص .

بلاد الشام بعد جلاء الصليبيين (الفرنجة) منها سنة ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م

نظم شعراء كثيرون في فتح السلطان الأشرف بقايا قلاع وحصون الصليبيين في بلاد الشام، فمن ذلك ما نظمه شهاب الدين محمود

الحمد لله زالت دولة الصلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في اليوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكّا وقد هدت قواعدها ... في البحر للشرك عند الدين من أرب
كم رامها ورماها قبله ملكٌ ... حم الجيوش فلم يظفر ولم يصب
لم ترض همته إلا الذي قصدت ... هجر عنها ملوك العجم والعرب
فأصبحت وهي في بحرين مائلة ... ما بين مضطرم النار ومضطرب
جيشٌ من الترك ترك الحرب عندهم ... عارٌ وراحتهم ضربٌ من الوصب
وأطلع الله جيش النصر فانتشرت ... طلائع النصر بين السمر والقضب
أجرت إلى البحر بحراً من دمائهم ... فراح كالراح إذ عرفاه كالحبب
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت ... بك الممالك واستعلت على الرتب
لقيتها يا صلاح الدين معتقداً ... فإن ظن صلاح الدين لم يخب
أدركت ثأر صلاح الدين إذ عصيت ... عنه لسر طواه الله في الكتب

وأنشد أبي غانم بيتين عند فتح عكا في هذا المعنى وهما

مليكان قد لقبا بالصلاح ... فهذا خليل وهذا يوسف
فيوسف لا شك في فضله ... ولكن خليلٌ هو الأشرف

ومن نظم شمس الدين ابن الصائغ:

يا أشرف الدنيا تهن فإنه ... فتحٌ سواك بمثله لم يحلم
أشبهت معتصم الخلافة همةً ... فالروم منك ديارها لم تعصم
قاتلت بلق جيوشهم بسوابق ... غر عليها الريح لم تتقدم
كم رعتها بسواد ليل أليل ... وصدمتها ببياض يوم أيوم
وأعدتها للمسلمين ولم يكن ... منهم يرى التطهير إلا بالدم
فالجمعة الغراء كان صباحها ... وجه الزمان بمثله لم يرقم

قوس النصر بناء من العصر الروماني في مدينة صور اللبنانية

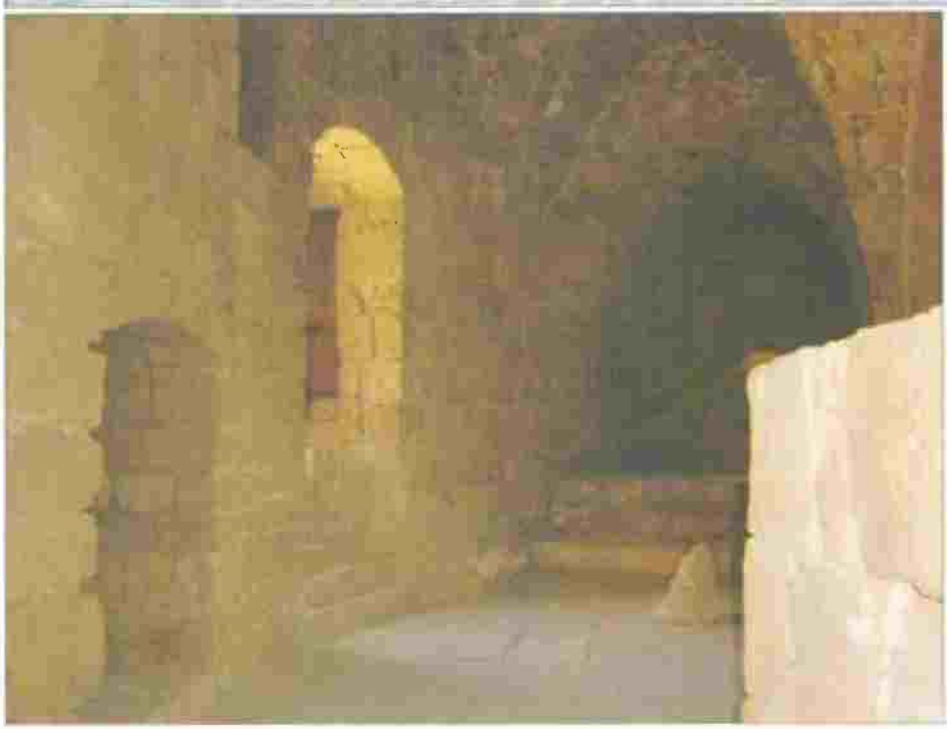

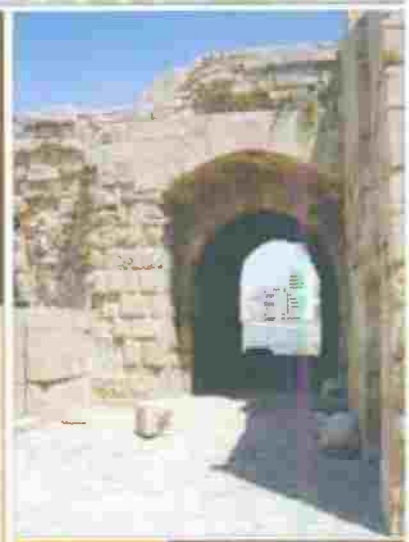

لقطات متنوعة لقلعة صـــــيدا، والذي تركها الصليبيون بعد هزيمة حصار عكّا.

قام **الأشرف خليل** بالاستيلاء بمعونة على بقية ما تبقى بأيدي الصليبيين مثل صور وحيفا اللتين قاومتا مقاومة كبيرة، ثم اضطرتا للتسليم فتحتا بدك من التخريب. ثم استولى الأشرف خليل على عتليت وصيدا وحرسوس، وبهذا تم القضاء نهائيا على الوجود الصليبي في الشام. إن كان **الصليبيون** في **جزيرة إرواد** المقابلة للساحل الشرقي؛ قد ظلوا يغيرون على السواحل بين الفينة والأخرى ويقطعون الطرق، مما أزعج نائب السلطنة المملوكية على الشام، وجعله يطلب معونة السلطان الناصر محمد بن قلاوون فجهز أسطولاً وجهه نحو هذه **الجزيرة** بعد أن ضم إليه **جيش طرابلس** فتحها وملكها وقتل من أهلها خمسمائة وذلك عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م).

فرار بقايا اللاجئين الصليبيين إلى جزيرة قبرص بعد مطاردة الجيش المملوكي لهم

جزيرة قبرص: بحكم موقعها الجغرافي، تصلها، من كل حدب وصوب، منتجات المناطق التي حباها الله تعالى بالتنوع الغذائي. فهي على مسافة يومين بحراً من مصر، وعلى عدة ساعات من سواحل الشام وآسيا الصغرى. ومع ذلك، فإن البحر يفصلها عن هذه المناطق، مما يحفظ لها استقلالها. على أن الجبال العالية والوعرة المسالك المحيطة بها من الشمال والشرق تقيها خطر الهجمات المحتملة من جهة آسيا الصغرى وبلاد الشام؛ لجأ إليها الكثير من **الصليبيين** إبان حصار أنطاكية، وبخاصة فرسان **الداوية**. واستقروا فيها؛ كما ارتادت شرافئها سفن التجار اللاتين، منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، وهي في طريقها إلى القسطنطينية أو إلى الإسكندرية، وكذلك سفن الحجاج الأوروبيين القاصدين زيارة الديار المقدسة في فلسطين بعد تحرير **صلاح الدين لبيت المقدس** على أثر معركة حطين عام ١١٨٧م، نزحت أعداد غفيرة من اللاتين عن الشرق قاصدة قبرص، لتقع الجزيرة البيزنطية الطابع في قبضة اللاتين عام ١١٩١م حين انتزعها ريتشارد قلب الأسد (Richard Cœur de Lion)، ملك أنكلترا، من إسحق كومنين (Isaac Comnène) المتمرد على السيادة البيزنطية، وباعها **لفرسان الداوية** ثم انتقلت بالشراء، بعد أقل من سنة، إلى أسرة لوزينيان (Lusignan) اللاتينية، بعد أن ثار السكان على الداوية وبطل البيع، فأقامت فيها مملكة استمرت نحو ثلاثة قرون، كان أمراً محتماً أن يحظى **الدور العسكري لجزيرة قبرص بتعاطف البابوية التي رأت فيه فرصة جديدة لمعاودة الاستيلاء على بيت المقدس**، وخاصة بعد أن أحسن القبارصة استقبال فلول **الاسبتارية** الهاربين من الشام، وساعدوهم على انتزاع **رودوس** من السيادة البيزنطية عام ١٣٠٩ م، فاتخذها هؤلاء قاعدة صليبية شاركت قبرص في سياستها الحربية والاقتصادية ضد المسلمين.

أهم مصادر ومراجع الباب الحادي عشر

١ - د . أحمد حطيط ، تاريخ لبنان الوسيط (دراسة في مرحلة الصراع المملوكي الصليبي).

الجامعة اللبنانية

٢ - د . أحمد حطيط ، دور قبرص في العلاقات بين المماليك والغرب الأوروبي في أواخر القرون

الوسطى ، الجامعة اللبنانية .

٣ -أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر .

٤ - Google Earth .

٥ - موسوعة ويكبيديا على الشبكة العنكبوتية .

٦ - سامي بن عبد الله المغلوث، الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي في العصور الوسطى .

دار الوراق، طبع ونشر ١٤١٩ هـ .

٧ - ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر

والقاهرة .

٨ - أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك .

٩ - موقع إسلام أون لاين على الشبكة العنكبوتية .